



د. أحمد يحيى علي - مصر



الجناس في سيرة الإنسان بلاغة

رحلة الشاعر الحطيئة من النار إلى النور

إن السياق المحيط بالإنسان يعد بمثابة فاعل مؤثر وموجه بدرجة كبيرة في الإنسان الذي يصير كأنه مفعول به يتلقى أثر هذا الفاعل عليه، والإسلام الذي جاء لينظم حياة الفرد وينظم سلوكه قد ترك أثرا قويا في العملية الأدبية لدى أجدادنا العرب ظهر ذلك جليا في قرض قصيدة الشعر التي تأثرت كثيرا على مستوى المحتوى الذي يبثه صاحبها إلى المتلقي بهذه العقيدة التي جاءت رحمة للعالمين، نرى ذلك في أحوال الشعراء محمودي الفعل الذين يمكن القول: إنهم يسكنون بعد أداة الاستثناء (إلا) في نص سورة الشعراء: لقد انتقلوا بالإسلام من حال إلى حال ليس فقط على مستوى الواقع المعيش، بل على مستوى الفن المصنوع كذلك، يتضح هذا الترتي كشمس ساطعة إذا ما نظرنا إلى نماذج مثل: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم..

«أبجدية الشاعر الحطيئة»

في طريق الالتحاق بهؤلاء الكرام مر البعض بعثرات ومحطات مظلمة يمكن نعتها بالسلبية حتى هداهم الله إلى الوصول إلى محطة الخشوع والتقوى في ميعاد قدره.. من هؤلاء الحطيئة (جرول) الذي ولد لأمة

إن الحديث عن الشعر بوصفه نوعا أدبيا يحمل في طياته حديثا عن العملية الأدبية برمتها فيما يتعلق بجانب المتعة المحض قرين اللذة، وجانب المنفعة قرين التربية والارتضاع بالبنیان الفكري والأخلاقي لكل من المرسل والمتلقي معا، وما من شك في أن ذلك سيقود إلى أداة الاستثناء الفاصلة بشكل حاد بين صنفين من مبدعي الشعر، الأول: مذموم، والثاني محمود الفعل والسلوك «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)» (الشعراء).

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبَغِيَّتِهَا

واقعدُ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي^(٣)

حتى قيل عن هذا البيت: إنه من أقسى ما قيل في الشتم والنيل من كرامة إنسان؛ لأنه شبه فيه رجلا بامرأة وخلع عنه رداء نوعه الذي خلقه الله به؛ فمعروف في ثقافة العربي أن الطاعم الكاسي أحوال لا تليق إلا بالنساء اللاتي يجلسن في بيوتهن منتظرات عطاء الرجل الراعي وثمار سعيه وعمله وترحاله..

وفي مرحلة الظلمة/النار هجاء للأهل والعشيرة، وهجاء لنفسه التي لم يجد غيرها ذات يوم ليسبه فسبها هي:

أَرَى لِي وَجْهًا شَوْهَ اللَّهِ خَلَقَهُ

فَقُبَّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَقُبَّحَ حَامِلُهُ^(٤)

لكن هذه المرحلة لم يشأ الله أن تكون وحدها الملونة لحياة صاحبها بلون الضلال والبعد عن طريق مستقيم السير عليه ينجي صاحبه بين يدي ربه ويكتب له بإذنه النجاة والسعادة في الدنيا وفي الآخرة.. إنها إرادة الله التي يهيئ لها أسباب تمكينها على الأرض، نلمح ذلك في خشوع ونحن ننصت إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾ (الأنعام)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾ (القصص)، ففي مرايا شعره يمكن النظر إلى ذلك العروج والارتقاء النفسي والقلبي الذي انعكس ظاهرا في كلمته المُبْدَعَة: فهذا قوله لمن أسدى إليه خيرا فصادف من لسانه شكرا وبراً:

فَلْيَجْزِهِ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ أَخِي ثَقَّةَ

وليهدده بهدى الخيرات هاديتها^(٥)

إنه الله الذي يستحضره ويدعو به ويجعله نصب عينيه فيما بينه وبين عباد.. هذا الارتباط به يعني الانتقال من

كانت ملك أوس بن مالك العبسي، ولعل لقب الحطيئة لم يكن بعيدا عن أمور تتعلق بهيئته الظاهرة التي لم تكن تروق للناظرين، ووضعيته الاجتماعية الدنية^(١)، وهي مؤثرات وصلت إلى شخصيته من عالمه الخارجي وتركت أثرها في تشكيل حالة نفسية ناقمة، رافضة، متمردة: نحن إذا بصدد أزمة وقع الشاعر ضحية لها، هل سيتوقف صاحبها مهزوماً أمامها؟ أم سيسعى إلى تجاوزها والتغلب عليها؟ وكيف؟ البداية ستكون بصحبته للشاعر الفحل زهير بن أبي سلمى يتعلم منه ويقوي موهبته الشعرية بملازمته له: فإذا كان وضع المنزل بحكم هيئته الاجتماعية فسيعالج ذلك برد فعل هو الإبداع الذي له منزلة في قلب العربي عاشق اللغة والاستخدام الجميل لها بالشعر والنثر.

يظهر الإسلام في شبه جزيرة العرب فلا يتبعه الحطيئة، ولم لا؟ إنه الشاعر المتمرد الرافض الذي بقي قلبه مغلقا دون نور الإيمان والهدى، لا يكتفي فقط بعتبة الرفض والإنكار، بل يوظف لسانه الناطق بالشعر ليهاجم الدعوة ونبيها وأهلها.. وتتأخر محطة النور في حياته كثيرا حتى اختلف الرواة في ذلك: أقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة يشهر إسلامه بين يديه؟ أم أنه تأخر في اعتناقه حتى توفى الرسول صلى الله عليه وسلم ذاهبا إلى جوار ربه؟ ودليل ذلك مسارعته إلى الردة، معينا بشعره المرتدين ضد أبي بكر وخلافته، حتى ليقول:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا

فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكر إذا مات بعده

فتلك وبيت الله قاصمة الظهر^(٢)

إنها مرحلة الظلمة إذا في حياة إنسان، وبقول ثان مرحلة النار في حياة صاحبها.. وكان لهذه المرحلة مظاهر تجلت في لسان شتام بالشعر، هجاء يتوجه كسوط ضارب على ظهور من يهجوهم، ومن هؤلاء الزبرقان بن بدر الذي قال فيه شاتما:



مرحلة الغضب والانفعال الذي يظهر من بين ما يظهر في الملفوظ بالقول إلى مرحلة الحكمة التي تنطلق من قلب مؤمن بها باحث عن سامع يحيلها إلى سلوك يبني نفسه وبيني غيره، ورُبَّ مَبْلَغٍ أوعى من سامع! فهو القائل:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يُعَدُّمْ جَوَازِيَهُ

لَا يَذْهَبُ الْعَرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ^(١)

حتى لقد قال الراوي أبو عمرو بن العلاء: لم تقل العرب بيتاً أصدق من بيت الحطيئة..

وربنا الذي يَقُولُ فِي التَّقْوَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾ (البقرة)، هاهو ذا الحطيئة (جرول) تتلقى نفسه هذه الآية ويتدبرها قلبه، والقلب سلطان الجوارح فتجد اللسان يردد بالشعر عاكساً هذه الحال بين عبد وبعض من كلام ربه:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ

وَلَكِنِ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ

وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ دُخْرًا

وَعِنْدَ اللَّهِ لِلتَّقَى مَزِيدٌ^(٢)

كأنها إذا عتبة النور التي أفضت إليه نفس إنسان وهذه تجلياتها، فلا شك في أن القلب الذي تخلص من شواغل الدنيا وشوائبها من حب مال ومنصب ومن رياء وسمعة بحثاً عن مخافة الله ومراقبته بحق هو قلب يرجو السلامة التي تنجي صاحبه من خزي الآخرة، ذلك الخزي الذي استعاذ منه نبينا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ﴿وَلَا تَخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ (الشعراء)، وفي هذا التراقي نجدنا أمام صفتين للإنسان في ابتعاده واقترابه من ربه:

الأولى: أراضية.

الثانية: ربانية.

إن ما يتلفظ به الإنسان لديه رقيب عتيد؛ ومن ثم فإن مسؤولية الكلمة تقتضي من المهمومين بالدعوة والتربية

إدراك ذلك بوعي، كل في موقعه؛ فالشاعر الحريص على أن يؤدي دوراً بالكلمة الجميلة يقدر أن الأدب على تعدد أنواعه رسالة بناء في جوهرها وغايتها لا مجرد إحداث أثر إمتاعي قد يتلاشى بمرور الوقت؛ فإذا كانت الوسيلة صياغة بإيقاع يهتز له القلب فيجب عدم الاستغراق في الوسيلة بالوقوف عندها والابتعاد عن الغاية المرجوة، ألا وهي القيمة التي يُراد لها الوصول إلى وعي مستقبلها لتستأنف بذلك مسيراً جديداً في الحضور والانتشار على يد هذا المتلقي بما تحمله من فضيلة تربي وتعلم^(٨).

إذاً فإن الإنسان بصفة عامة يتحرك في دنياه حركة بلاغية بديعية سمتها الجناس؛ فمن النار/ الكفر أو المعصية، إلى النور/ الإيمان والقرب من الله ومراقبته وتقواه ■

الهوامش:

(١) انظر: د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر صدر الإسلام، ص ٩٥، الطبعة الثالثة والعشرون، دار المعارف بالقاهرة دون تاريخ.

(٢) السابق، ص ٩٦.

(٣) السابق، ص ٩٧.

(٤) السابق، ص ٩٩.

(٥) د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر صدر الإسلام، ص ٩٩.

(٦) السابق، ص ٩٩.

(٧) د. شوقي ضيف، ص ٩٩.

(٨) د. سيد قطب وآخرون، في مجالس الشعر، ص ٢٥، تحرير: د. أحمد يحيى، طبعة ٢٠١٢م، دار الهاني، القاهرة